تفسير التاريخ بين مسار النهايات ومسار الدورات

مخلص السبتي

في تتبعنا لمسار حركات تفسير التاريخ تستوقفنا ظاهرة جديرة بالتتبع، وهي أنه مهما اختلفت أطروحات دارسي التاريخ ومفسريه أو تناقضت، ومهما تباينت مرجعياتهم، فإن أغلبهم لا يخرج عن انتهاج واحد من منهجين اثنين، منهج خطي تقدمي مضمونه أن للتاريخ هدفا يسير إليه ، ونهاية مطلقة ينتهي إليها، فالمستقبل محدد ، والتاريخ سائر إليه، ومنهج دوري يرى أن التاريخ لا يسير بذاته إلى هدف معين، بل يعيد نفسه وفق قانون معين يحكم عليه بالسير في حلقات متتابعة دورية تعاود الظهور بانتظام كلما توفرت أسباب العودة[[1]](#footnote-1).

وفق هذا التصنيف يمكن فهم عمق نظريات كبار فلاسفة ومفسري التاريخ أمثال ابن خلدون[[2]](#footnote-2)وإيمانويل كانت[[3]](#footnote-3)وفريدريك هيغل[[4]](#footnote-4) وأوغست كونت[[5]](#footnote-5) كارل ماركس[[6]](#footnote-6) وفرانسيس فوكوياما[[7]](#footnote-7) وغيرهم.

مسار النهايات

كانت والوصول إلى عهود الأنوار:

ظلت الحرب - بحسب كانت - هي القاعدة الأساس في علاقة الناس ببعضهم خلال ماضي التاريخ، ولم تكن فترات السلم إلا استثناءات قصيرة على مراحل متباعدة، فقد كان الناس في صراع شبه مستمر مع بعضهم بعضا، قاتلوا بعضهم أيام الحرب، وهددوا مصالح بعضهم أيام السلم،وفي كل الحالات استمر ظلم الإنسان للإنسان، لكن العناية الإلهية،وهي تتجه بالبشرية إلى أوضاع أكثر سموا ورفعة،أهلت الإنسان للاستفادة من خبراته وتجاربه وقدراته العقلية،ومنحته إمكانات تطوير مستقبله بواسطة التعاقد على"دستور جمهوري" يحمي الحقوق والحريات، ويربط الجميع بتشريع واحد مشترك يتساوى ضمنه الجميع بصفتهم مواطنين،حتى إذا تحقق هذا الهدف داخل بلدان وأوطان كان الطريق ممهدا لتحقيقه بين الأوطان مع بعضها، وذلك من خلال بناء اتحاد بين عدة دول يربطها قانون مشترك يحمي حريات الدول وحقوقها، مثلما ربط بين الأفراد قانون دستوري داخل دولة تحمي حرياتهم وحقوقهم، فيتحقق السلام داخل الشعوب وبين الشعوب[[8]](#footnote-8)، وبهذا، فإن غاية الجنس البشري بلوغ النظام السياسي الأكمل ، والوصول إلى وضع تتقدم فيه الأخلاق وتسود فيه العدالة والحرية والديمقراطية بين مجتمعات عالمية، تحكم القوانين الدولية العادلة ، وتقف بذلك جميع الدول على قدم المساواة، ولم يتوقع كانت لعهوده المستقبلية "عهود الأنوار" أن تحقق "الجنة على الأرض"،بل حسبها أن تكون عهودا تبلغ فيها البشرية رشدها، فتعم العدالة بين الناس وتنتشر الحرية والمساواة بين الشعوب.

هيغل والوصول إلى الروح المطلقة:

إذا كان كانت يدعو لمجتمع متخل عن الحروب معاد لها، فإن هيغل- على العكس من ذلك - يعتبرها ضرورية وذات أهمية بالغة للتطور بما تحدث من حيوية وفاعلية دافعة للإنجاز، ويرى أنه من دون حروب فإن معاني الحرية في النفوس تضمحل، وإن الأخلاق تتراجع، وإن الشعوب تتخلف [[9]](#footnote-9)، ومما يرفع من خطورة هذا التنظير تعصب هيغل لأروبا وللجنس الآري فيها، فلا بد أن يخضع العالم لأروبا، ولا بد أن تخضع أروبا للجنس الآري، وهذا مما جعل كثيرا من الباحثين يحملون هيغل مسؤولية انتشار الديكتاتورية والاستبداد في عدد من البلدان الأروبية بعد عقود من وفاته، خاصة بعد أن أصبحت فلسفته جزءا من توجهات الأنظمة الفاشية والنازية في إيطاليا وألمانيا [[10]](#footnote-10).

ومن جهة أخرى، فقد حاول هيغل استكمال المشروع الذي بدأه كانت ،فاستمد منه فكرتي الصراع والتطور نحو السلام، ووظفهما في ابتكار ما أسماه ب (الجدل الصاعد)، فالتاريخ عنده يتطور بفعل صراع فكرة المساواة الاجتماعية مع نقيضها حتى الوصول إلى التركيب الذي يصارع بدوره نقيضه حتى الوصول إلى تركيب جديد، وهكذا دواليك ، إلى أن ينتهي المساربالوصول إلى "الروح المطلقة " وهي الحالة التي لا يوجد فيها تناقض ولا تركيب.

إنها مراحل ثلاث، من فكرة أولية، إلى فكرة أكثر قوة تصارع الأولى، إلى تركيب جديد يجمع محاسن الفكرتين معا ويتجنب مساوئهما، والتركيب المستمر المتجدد هو ما يجعلنا نتقدم إلى الأمام نحو الحقيقة في خطوات متلاحقة حتى نصل إلى " الروح المطلقة "، وهي الحالة التي تكون فيها الفكرة كاملة منزهة عن كل نقص، ولا تنتج أي تناقض، ويمكن أن تمثل هذه " الروح المطلقة " وتدافع عنها دولة دستورية حرة تضمن حريات الأفراد ، شريطة أن يعترفوا بحرية بعضهم وتتجه إرادتهم لحمايتها.

والإنسانية بالنسبة لهيغل شاءت أم أبت تسيروفق هذا المبدإ الجدلي التركيبي الذي اعتبره مبدأ عقلانيا وواقعيا مشاهدا، الشيء الذي جعله يقرر أن كل ما هو عقلاني فهو حقيقي (أي موجود في الواقع)، وكل ما هو حقيقي (موجود في الواقع) فهو عقلاني، وهذا ما جعله يعتبر الأنظمة الاجتماعية الحقيقية (الموجودة في الواقع) خطوات لابد منها، ولابد من قبولها لأنها خطوات في طريق تحقيق الروح المطلقة.[[11]](#footnote-11)

ماركس والوصول إلى نهاية الطبقية:

واضح إذن أن الجدل الهيغيلي قد اتصف بمثالية تكاد تكون مطلقة، إذ جعل التقدم رهين صراع الأفكار مع بعضها، وهذا ما حاول ماركس هدمهوبناء ماديته التاريخية على أنقاضها مبقيا على الدياليكتيكالهيغيلي، موظفا إياه في مجال غير المجال الذي عمل له هيغل،فبعدما كان الوعي الفكري عند هيغل هو أساس الصراع وهوالذي يحدد الوجود ويحقق التطور المادي، أصبح التطور المادي عند ماركس هو الذي يحدد الوعي الفكري، وبعدما كان صراع المتناقضات يتأسس على الفكر عند هيغل ، أصبح يتأسس على الكيان الاقتصادي في واقع الناس عند ماركس، وبعدما كان تطور الإنسانية إلى الكمال ينتهي بالوصول إلى "الروح المطلقة" عند هيغل، أصبح التطور عند ماركس ينتهي بتحقيق مجتمع بدون طبقات بفضل تطور وسائل الإنتاج، وهذا ما جعل ماركس يصل في كتابه "رأس المال" إلى استنتاج مفاده أن الدول الأكثر تصنيعا تطلع الدول الأقل تصنيعا على مستقبلها،بفعل عملية التطور المستمر في أدوات ووسائل الإنتاج[[12]](#footnote-12)

وباختصار، عمد ماركس إلى الجدل الهيغلي فوظفه في مجال المال والأعمال ووسائل الإنتاج، بعدما كان موظفا عند صاحبه في مجال الفكر والنظر ، مما دعا صديقه فريديريك إنجلز لأن يقول: "إن هيغل أصبح الآن واقفا على قدميه بعد ما كان واقفا من قبل على رأسه"[[13]](#footnote-13)

كونت والوصول إلى انتصار العلم:

وإذا كان ماركس يرى أن تطور البشرية الحتمي يسير بها من المرحلة المشاعية البدائية، إلى المرحلة الإقطاعية، إلى البورجوازية،إلى الاشتراكية، فالشيوعية حيث تنمحي الطبقات فتتحقق المساواة، فإن أغستكونت يفضل أن يرى التاريخ من زاوية نظر أخرى،فتطور البشرية عنده يسير من المرحلة الدينية إلى المرحلة الميتافيزيقية إلى المرحلة الوضعية، وهي نهاية رحلة الإنسانية في بحثها عن الحقيقة، ففيها ينتصر العلم ويغلب منطقه على ما سواه.

ففي المرحلة الدينية، استهدفت الإنسانية معرفة العلل الأولى للوجود ومصير الإنسان بعد الموت، إلى غير ذلك مما له علاقة بالمعرفة المطلقة، وفي المرحلة الميتافيزيقية بدأ الإنسان ينظر إلى محيطه نظرة مغايرة، نظرة تنسب للطبيعة قوى مجردة خاصة بكل ظاهرة من مظاهرها،أما في المرحلة الوضعية ، فلقد بدأ الإنسان يعتمد على العلم في فهم محيطه والتحكم فيه، واكتفى بالبحث عن العلاقات القائمة بين الأشياء ، مقتنعا في الأخير باستحالة التوصل إلى "المطلق" ، وهاته المرحلة عند كونت هي مرحلة نضج البشرية وكمالها، وهذا التفسير أسماه صاحبه بقانون المراحل الثلاث (étatsla loi des trois )[[14]](#footnote-14)

فوكوياما والوصول إلى الليبرالية الديمقراطية:

ثم جاء فوكوياما في نهاية القرن العشرين بكتاب"نهاية التاريخ" (The end of History and the last man) وصرح في مقدمته بتأثره بهيغل وماركس في أن التاريخ يجري لمستقر له:( آمن كل من الفيلسوفين هيغل وماركس بأن هذا التطور المطرد للمجتمعات البشرية لا يسير إلى ما لا نهاية، وإنما هو محكوم بتوصل الإنسان إلى شكل محدد لمجتمعه يرضي احتياجاته الأساسية، وعندما يتم التوصل إلى هذا الشكل يتوقف التطور، وبمعنى آخر، يتوقف التاريخ...ولا يعني هذا إطلاقا أي توقف للأحداث، فالحياة ستستمر من ميلاد إلى موت، وسيستمر تفجر الأحداث سواء أكانت هامة أم غير هامة...لكن الاختلاف الوحيد هو أنه لن يكون هناك أي تقدم أو تطور بعد اليوم فيما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات.

ويهدف هذا الكتاب إلى إعادة طرح السؤال القديم مجددا وهو: هل يقود التطور التاريخي المطرد الغالبية العظمى من البشر نحو النظام الرأسمالي الليبرالي؟ والإجابة التي تمكنت من التوصل إليها هي:.... نعم) [[15]](#footnote-15)

إن البشرية بالنسبة لفوكوياما قد وصلت فعلا إلى منتهى الأمل في التقدم والازدهار،طليعتها في ذلك "الأمة الأمريكية صاحبة الإنجاز الليبرالي الرائد"،وأن البشرية سائرة إلى هذا النموذج لامحالة، وأن المتقدم حقيقة من أدركه ، والمتخلف من تخلف في الوصول إليه.

وينهي فوكوياما كتابه "نهاية التاريخ" بعصارة مركزة تجمل جوهر نظريته: (يبدو لي أخيرا أن الجنس البشري كما لو كان قطارا طويلا من العربات الخشبية التي تجرها الخيول متجهة إلى مدينة معينة عبر طريق طويل في الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بالسرعة المطلوبة، والبعض الآخر تعرض لهجوم الأوباش... فضل الطريق، والبعض الثالث أنهكته الرحلة الطويلة فقرر اختيار مكان وسط العراء للإقامة فيه.... وفي النهاية يجد الجميع أنفسهم مجبرين على استعمال نفس الطريق ولو عبر طرق فرعية مختلفة للوصول إلى غايتهم، وفعلا تصل أغلب هذه العربات إلى المدينة في النهاية، وهذه العربات عندما تصل لا تختلف عن بعضها البعض إلا في شيء واحد وهو توقيت وصولها إلى المدينة الديمقراطية الليبرالية.... نهاية التاريخ)[[16]](#footnote-16)

ولا يخفى ما في فكر فوكوياما من نزعة مركزية غربية تكاد تتجاهل كل مقومات التنوع الإنساني، ولا ترى فيها إلا محطات خلفية متخلفة عن النموذج الأمريكي المحتفى به.

إن فكرة نهاية التاريخ - بمختلف صيغها - هي في الأخير عبارة عن تطلع مستقبلي معياري يدعو فيه كل فيلسوف إلى هدف يكاد يكون مطلقا؛ وهو الهدف المرجو للبشرية عنده، فإيمانويل كانت يرى أن نهاية التاريخ هي في إدراك البشرية حريتها عن طريق قوانين عالمية عادلة، في حين يرى كل من هيغل وماركس أن نهاية التاريخ هي في تحقق مجتمعات خالية من التناقض، وبينما نظر الأول "للروح المطلقة" حيث الدولة الدستورية الضامنة لحريات الأفراد،نظر الثاني ل"مجتمع من دون طبقات" حيث يتساوى الأفراد وتتحقق العدالة، أما كونت فقد بشر بانتصار الوضعية العلمية على ما سواها من ألوان المعرفة الميتافيزيقية والدينية، وجاء فوكوياما في نهاية القرن العشرين، وراكم خبرات السابقين فأسس عليها فكرته القائلة بنهاية التاريخ على النمط الليبرالي الديمقراطي الأمريكي.

مسار الدورات:

ابن خلدون وقانون التعاقب الدوري:

وعلى الضفة الأخرى، ضفة القائلين بدورية التاريخ، نجد عبد الرحمن بن خلدون الذي اعتبر أول من أبدع تفسيرا متكاملا للتاريخ،فقد تمكن مبكرا من الربط بين أحداثهبهدف استخراج قوانينه العامة التي تحكمه باحثا عن عوامل النهضة والسقوط عند الدول، مرجعا ذلك لقانون الفناء الطبيعي، فكما أن عمر الإنسان له أجل وميقات لا يتجاوزه، فكذلك عمر الدول (الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته)[[17]](#footnote-17) فعمر الدولة عنده في الغالب مائة وعشرون سنة موزعة على ثلاثة أجيال: الجيل المؤسس، وهو جيل بدوي خشن ويقظ ،حده مرهف ، جانبه مرهوب ، أخلاق البداوة فيه بارزة ، شظف في العيش وبسالة في المواجهة وسعي حثيث لنيل المجد، بعده يأتي الجيل الثاني، وهو جيل جديد ، خرج من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن الشظف إلى الترف، عرف بعضا من قسوة الحياة وبعضا من ترفها، ينظر وراءه فيرى بداوة وقوة ، وينظر بين يديه فيرى رقة ودعة، وهو بينهما مائل ذات اليمين يسعى بجد، وذات الشمال يتوانى بكسل ، أما الجيل الثالث فينسى -بتقادم العهد- ظروف البداوة كأن لم تكن من قبل، ويملك وسائل القهر والتسلط، ويبلغ عنده الترف غايته...ويصير أصحاب النفوذ فيه عيالا على الدولة، ثم لا ينشغلون كثيرا بموجبات الحماية والمدافعة فتسقط العصبية ، وتسقط بسقوطها الدولة.

(فهذا كما تراه ثلاثة أجيال، ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة ، وهذا معناه فاعتبره **واتخذه قانونا** ).[[18]](#footnote-18)

التفسير الخلدوني للتاريخ إذن يقوم على مراحل ثلاث: بداوة وفرقة ، ثم اجتماع وقوة ، فترف وتشتت ، ثم عود على بدء.... ووسيلة التغيير في المراحل كلها الصراع ، ولكنه ليس صراعا بين أفكار ولا بين أديان ولا بين مذاهب ، بل صراع بين هويات قبلية بدوية تقيم المنتصرة منها ملكا وتبني دولة، ثم ما تلبث الدولة أن تتراجع بفعل ترف رجالها وتراجع هممهم، فتسقط، وسقوط الدولة لا يتم إلا بعد تراكم مجموعة من العوامل ، وهي ما قد نطلق عليه اليوم **بالاستبداد السياسي** (وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعنتهم واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا...)[[19]](#footnote-19)**وسوء التوزيع الاقتصادي**: (فالفقير منهم يهلك، والمترف يستغرق عطاءه بترفه....)[[20]](#footnote-20) **وتراجع الدافعية للإنجاز**:(إذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة.... وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس.... فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم، ويعود وبال ذلك على الدولة )[[21]](#footnote-21).

وهكذا ، فتأسيس الدولة عند ابن خلدون يتم بفعل تطلع البدو وخوضهم صراعات عنيفة ضد عصبيات قبلية مترفة هرمة، فإذا انتصر البدو على المترفين أسسوا دولتهم الجديدة على أنقاض الدولة البالية المهزومة،فيحصل الملك فيهم ويحققوا ما لم يتمكن من تحقيقه سابقوهم،وبتقادم العهد ومرور السنوات يتقاعسون عن بذل الجهد الذي كانوا يبذلونه، ويؤثرونالراحة والسكون والدعة، فيبدأ بذلك الفتور يتسلل إلى أركان الدولة حتى تتراجع بدورها ، وتأخذ مكانها عصبية أخرى تقيم دولة جديدة، وتسير كما سار سابقوها، فالمحرك للتاريخ إذن هو الصراع الدوري المتجدد بين عصبيات متوثبة وطموحة،وأخرى مترهلة ومترفة.

اشبنجلر والنظرة الحيوية للحضارة:

إذا كان ابن خلدون يرى أن للدولة أعمارا طبيعية كما للأشخاص، فإن المؤرخ والفيلسوف الألماني أوزوالد اشبنجلر[[22]](#footnote-22) ينحو نفس المنحى (لكنه يوسع دائرة دراسته حتى تشمل الحضارة) ويرى أن للحضارة أجل ينتهي بالفناء، فهي تجتاز مرحلة الطفولة، فالشباب، فالنضج فالشيخوخة ثم الموت المحتوم ، وتموت الحضارة حينما تحقق جميع "إمكاناتها الباطنية " أي حينما تحقق أهدافها من النماء والرفاهية، وهذا ما كان قد قصده ابن خلدون حينما أكد أنه (إذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها)، ولقد رأينا عند ابن خلدون أن البداوة هي أول أطوار الدولة[[23]](#footnote-23)، وقد وافق على هذا الرأي وأكده اشبنجلر حينما رأى أن طبقة الفلاحين تسبق ميلاد الحضارة، أي هي التي تؤسسها[[24]](#footnote-24).

وحينما يرى ابن خلدون أن المحرك للتاريخ هو العصبية ،يكاد اشبنجلر يرى الشيء ذاته، فيؤكد أن اجتماع المحاربين في قبيلة أو جنس بقصد الدفاع ضد قوى خارجية معادية هو البذرة الأولى للدولة إذ الأصل في الدولة هو الحرب.[[25]](#footnote-25)

فالحضارة إذن يؤسسها بدو محاربون ويسيرون بها حتى تصبح قوية عظيمة التأثير،ثم تتراجع بعد ذلك فتضعف وتهرم وتموت، والإنسان في علاقته مع الحضارة خاضع لقوانين التاريخ تفعل فيه فعلها، وهو لها تابع منقاد طوعا وكرها،بل إن عظماء التاريخ بالنسبة لشبنجلر ليسوا إلا عربات تمتطيها الحوادث والأحداث لكي تفرض قانونها الحاسمومسارها الأبدي، فلو لم يكن نابليون هو القائد المبدع لكان غيره في مكانه يفعل الشيء نفسه ويحقق النتائج نفسها[[26]](#footnote-26)،فما الإنسان -عند التحقيق -بحسب شبنجلر إلا مظهر من مظاهر قوة القانون وأبديته.

تجتاز الحضارات الإنسانية إذن ما يجتازه الأفراد في حياتهم التي تنتي بالموت، فإذا ماتت حضارة، فهي مثل الفرد لن تعود أبدا إلى الحياة مرة أخرى،لأنها ظاهرة متفردة لا تتكرر ولا تكرر نفسها، إن ماتت أخذت مكانها حضارة أخرى تحتل نفس الفضاء وتمر في نفس الأطوار ، من طفولة فشباب فشيخوخة ثم الموت المحقق.

توينبي وقانون التحدي والاستجابة:

يبلور أرنولد توينبي[[27]](#footnote-27) نظريته في تفسير التاريخ وفق منهج بنيوي يشابه منهج اشبنجلر من حيث أن كل حضارة هي وحدة مغلقة قائمة بذاتها تجتاز أطوار الولادة فالنمو فالشيخوخة فالفناء.

ولعل شبنجلرقد ألهم توينبي حينما جعل انبثاق الحضارة رهينا باجتماع المحاربين ضمن قبيلة أو مجتمع لرد تهديد خارجي، إذ الحضارة عند توينبي إنما تولدجراء ضغوط التحديات التي قد تكون طبيعية أو عسكرية أو اقتصادية.... فالتحديات تشكل حوافز دافعة ومستفزة للإنسان من أجل الإبداع والابتكار، وهكذا فالحضارات لا تولد من اليسر والسهولة بل من العسر والصعوبة،وهذا ما أسماه بمبدإ التحدي والاستجابة.[[28]](#footnote-28)

وبعد الولادة والنمو يأتي الهرم والتراجع، لكن هذا التراجع عند توينبي لا يأتي بفعل هرم طبيعي كما يرى ابن خلدون وشبنجلر، ولا بفعل تطور تاريخي حتمي كما يرى هيغل وماركس... بل بفعل إرادة الأفراد ونوع قراراتهم المتخذة، وأسلوب عيشهم المعتاد،إنهم يغفلون عن مقومات التماسك ويتجاهلونموجبات الإبداع، ويكتفون بالتغني بأمجادهم السالفة وانتصاراتهم الماضية، يفرون بذلك من مواجهة واقعهم بما يتطلب من إبداع في رفع تحدياته فتتلاشى حضارتهم وتموت، وهذا ما حدث لأثينا والبندقية والقسطنطينية وغيرها.

لكن بأي شيء نعرف أن مآل حضارة ما هو الانهيار؟ وما هي علامات السقوط المنتظر؟ ومن المسؤول عن السقوط؟

إنها النزاعات الاجتماعية والحروب الأهلية،وهي كلها من صنع الإنسان ومن تدبيره وعلى مسؤوليته، ولا يتحمل غيره عنه هذه المسؤولية،وتتعدد أسباب النزاعات والانشقاقات، لكنها ترجع كلها إلى مسببين اثنين:

* تراجع الإبداع عند النخبة المبدعة التي تنقلب إلى سلطة تعسفية.
* تخلي الأغلبية عن إتباع النخبة الموجهة.[[29]](#footnote-29)

إن توينبي وهو يؤكد على أهمية إرادة الإنسان في تقرير مصيره ، لايغفل دور قوانين التاريخ في مسار الأفراد والمجتمعات،بل إنه يؤكدها ويلح عليها ويبني مستقبل الإنسانية على تفعيلها،كل ما في الأمر أنالقوانين لا تحدد مستقبل الإنسان بمعزل عن إرادته، فهو الذي يختار السير بمقتضاها، أو يختار الإعراض عنها، ولكل خيار نتيجته في واقعه ومسار حياته، ولا يمكن لأحد أن يختار الإعراض عن قانون التاريخ ثم يختار النتائج المترتبة عن هذا الإعراض.

إن تفرد توينبي من بين فلاسفة التاريخ لا يرجع إلى اكتشافه مجموعة من قوانين التاريخ وبيانه كيفية تأثيرها في مسار الأمم والشعوب قديمها وحديثها، بل في أسلوبه الممكن من فهم طرق تأثير كل من القانون المستقل المطرد ، والإرادة الإنسانية المتقلبةوالمتـغيرة في مسـار التــاريخ.

مسار التاريخ في الإسلام -النصوص والتمثلات:

مر بنا أن مسار البشرية ماض إلى عهود الأنوار بحسب إمانويل كانت ،وإلى الروح المطلقة بحسب هيغل ، و إلى الوضعية العلمية بحسب أغست كونت ، وإلى مجتمع من دون طبقات بحسب كارل ماركس، ومر بنا أيضا أن التاريخ يسير ضمن مسار دوري كلما انتهى عاد مبتدئا، وذلك تفسير ابن خلدون وشبنجلر وتوينبي ، ويبدو أن طرح سؤال مسار التاريخ في التمثل الجمعي للنصوص الاسلامية هو في - سياق الفكر المعاصر - طرح بالغ الأهمية ، ذلك أن هذه النصوص قد عرفت بمرور العهود تأويلات شتى ، أحيانا جبرية تبرر السلبية وتدعو للاستكانة ، وأحيانا " نهضوية " تحفز الهمم وتدعو للمبادرة ، وبين تأويلات الاستكانة وتأويلات الاستنهاض درجات متفاوتة ، كلها تعيننا على فهم واستشراف كثير من التحولات في واقع المجتمعات الاسلامية على المستويات الاجتماعية والسياسية والحضارية العامة.

هناك من يفسر التاريخ تفسيرا تقهقريا، فيرى أن المسار العام للتاريخ هو إلى الأسوأ خلقيا وتشريعيا وربما أمنيا وبيئيا... انطلاقا مما يدل عليه حديث: (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه)[[30]](#footnote-30) وحديث (خير القرون القرن الذي أنا فيهم، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع لا يعبأ الله بهم شيئا)[[31]](#footnote-31) .

وهناك من يرفض هذا التفسير ويرى أن الأحاديث المستشهد بها غير قطعية الدلالة ولا الثبوت - فينبغي إما ردها ، أو حملها على أفضلية الجيل الأول المؤسس للدعوة المضحي من أجلها بالأموال والأنفس - فضلا عما تحمله من تناقض مع آية سورة الرعد المبشرة بتكاثر الخير بتوالي العهود ( فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض )[[32]](#footnote-32)، فهذه الآية بالنسبة ل" تيار الاستنهاض " واضحة الدلالة على أن ما لا نفع فيه هو إلى زوال ، وأن المنافع إذ تمكث في الأرض فهي تتكاثر بمرور الزمن وبذهاب " الزبد "، ويدعمون تأويلهم هذا بظاهر آية الإسراء : (وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا)[[33]](#footnote-33) فمن طبع الباطل أنه زهوق زائل ، ما تلبث الحياة بعده أن تصفو من أكدارها ، أو تزداد صفاء ، كما يستشهدون بآية : ( كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز ) و: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره عل الدين كله ) [[34]](#footnote-34)، و(يزيد الله الذين اهتدوا هدى ) [[35]](#footnote-35)وأيضا بحديث : (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز، أو بذل ذليل ) [[36]](#footnote-36)

وبين هـذا التأويل وذاك، تستوقفنا سورة العصر، وظاهرها أن طبيعة الحياة تتجه بالإنسان إلى الأسوأ، وأن المصير هو إلى "خسر" ما لم توضع إرادة هـذا الإنسان في الحسبان، فيتحمل مسؤوليته في تغيير مجرى التاريخ بإرادته، آنئـذ يتغير كل شيء، فالإنسان هنا سيد قدره، والفاعلية الإنسانية لها القول الفصل والقرار الحاسم (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا الحق وتواصوا بالصبر)[[37]](#footnote-37)، فأن تكون إنسانا وفق سورة العصر فهـذا لا يكفي حتى يتحقق الإيمان، ثم إن هـذا بدوره لا يكفي، حتى ينضم إلى الإيمان القيام بواجب السهر على إصلاح الحياة، ثم إن هـذا أيضا لا يكفي حتى يقوم الإنسان بواجبه في التوعية بوجوب إحقاق الحق وإبطال الباطل، فهل هـذا كاف ؟

بالنسبة لسورة العصر: الجواب لا، فكثيرون هم المتساقطون في طريق الإيمان والصلاح والإصلاح ، لن يخرج الإنسان من واقع الخسران إلى حال الفلاح حتى يتكتل مع غيره في طلب الصبر على مشاق الطريق،وذلك منمقتضيات " تواصوا" فهؤلاء المتواصون هم الذين يغيرون مسار التاريخ بما يحملون من إيمان بقضيتهم، وبما يملكون من حماس دافع للإنجاز، فإذا ما غفلوا فإن الحياة تعود إلى طبيعتها المؤدية إلى الخسران، فمقابل الصلاح -في سورة العصر- ليس هو الفساد دوما، بل قد يكون هو مجرد الغفلة .

وأيا كانت التفسيرات والتأويلات ، وأيا كانت النصوص صحيحة وسقيمة ، فإن لها من التأثير في نفسيات المؤمنين بها، وفي تعاملهم مع واقعهم، وفي درجة الجهد الذي يبذلونه ما يجعلها توجه حاضرهم وتقرر الكثير من تفاصيل مستقبلهم.

ولسنا نريد هنا أن نستعرض كل ما قيل في تفسير التاريخ، ولا أن نستفيض في تتبع مختلف تأويلات النصوص الدينية في الموضوع، ولا أن نغوص في المقارنة والموازنة، حسبنا ملامسة رؤية كل اتجاه إلى المستقبل من خلال أسسه النظرية في فهم قوانين سير المجتمعات وتحول الثقافات، جاعلين نصب أعيننا أن كل اتجاه في تفسير الأحداث وتأويل النصوص قد عكس ظروف زمانه وتحديات واقعه[[38]](#footnote-38).

التاريخ وإرادة الإنسان:

في سعينا لفهم مسار التاريخ في تفاعله مع الإرادة الإنسانية، فإن تراكم الدراسات السابقة في التفسير أمر ضروري، إذ سيطلعنا كل اتجاه على غير الذي أطلعنا عليه الآخر، فلكـل اتجاه سياق ووضع يكاد ينفرد به عن غيره، فلم يقل ابن خلدون كل الحقيقة لأنه لم يشاهدها، كما لم يشاهدها كانت بعده ولا هيغل.

إن كل واحد منهم قد رأى جانبا هاما ركز انتباهه إليه وفسر التاريخ من خلاله، ويستطيع الدارس المدقق أن يرى أغلب جوانب ما يحتاج إليه واقعه بعينيهوعيني من سبقه، وليس هذا بكاف ولا مجد حتى يتم الرجوع مباشرة إلى هداية السماء وتعاليم الأنبياء.

المطالع للقرآن الكريم يجده دائم التأكيد على فائدة تتبع تاريخ البشرية وأهمية الوقوف على آثار العهود القديمة... إنه يثير انتباه الفكر الإنساني ويدفعه إلى البحث، ويقدم له نماذج من تحارب الأمم وسعي الأنبياء وكد المصلحين، حتى لتغدو أسباب الرقي واضحة وأسباب السقوط جلية، ثم لا يكتفي بذلك، بل يدعو إلى استيعاب التجربة وأخذ العبرة واستشراف المستقبل على ضوئها، والعمل من خلالها، فتتضح مسؤولية الإنسان تجاه ما قد علمه من سنن التاريخ فيختار لنفسه.

إن القرآن في سعيه هذا لا يثقل كاهل الإنسان بتفاصيل التاريخ لكي لا تضيع الأهداف وراء معلومات تثير فضوله ولا تثير عزيمته، فكم من نبي لم يذكر لنا القرآن عنه الكثير، وكم من مصلح ذكر لا نعلم اسمه، وكم من قرية ذكرت لا نعلم مكانها، وكم من واقعة وقعت لا نعلم زمانها، لكي تعلو الفكرة الشخص والزمان والمكان، فلا يعلق بالذهن ولا يملأ القلب ولا يحرك الخيال إلا هي، إنها الفكرة - القانون التي لا تحابي أحدا ولا تستثني المسلمين أن ينطبق عليهم ما انطبق على الأمم قبلهم، ولا تستثني أيضا حتى الرسول الأمين الذي بلغها:**﴿وإنه لذكر لك ولقومك، وسوف تسألون﴾**،[[39]](#footnote-39)و**﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾**.[[40]](#footnote-40) و**﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾**[[41]](#footnote-41)

فما انطبق على الناس انطبق على المؤمنين[[42]](#footnote-42)، وما انطبق على هؤلاء انطبق على نبيهم، فلا حصانة ولا استثناء ولا شذوذ، لدرجة أن ينزل الوحي ب**﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين، وإنه لتذكرة للمتقين﴾**[[43]](#footnote-43)

إن للحياة- وفق القرآن - سننا وقوانين نافذة على الجميع، لا تتبدل ولا تتحول، ولذلك فحينما رمى كفار قريش النبي صلى الله عليه وسلم بتهمة الجنون ، لم ينذرهم بالويل والثبور، بل دعاهم إلى التفكير، التفكير في صاحب الرسالة ، والتفكير في محيطهم الشاسع، والتفكير في سنة التداول التي قد تحكم عليهم بالاندثار إن هم جمدوا على ما ألفوه في ماضيهم ومعهودهم القبلي الضيق الذي حانت نهايته **﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة، إن هو إلا نذير مبين، أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يومنون﴾**[[44]](#footnote-44)

وحان الأجل، وأدركت سنة التداول كبار قريش المتشبثين بعهود الماضي أن تزول، فقضوا في بدر وانتهوا، وآل أمرهم إلى زوال.[[45]](#footnote-45)

ولم تمر فترة طويلة على هذا الانتصار حتى انهزم المسلمون في أحد، وأصيبوا في الأرواح والأبدان ببالغ الأذى... قتل منهم سبعون صحابيا[[46]](#footnote-46)، وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم وشج في وجهه، وكان من نتائج هذا صدمة شديدة هزت نفوس المسلمين حتى قالوا:﴿ **أنى هذا؟﴾**[[47]](#footnote-47) وكيف يقع لنا هذا ونحن المسلمون وأصحاب النبي؟.

جاءت الهزيمة إذن بعد النصر، وجاء الابتلاء بعد الابتلاء، ابتلاء بالخير يعقبه آخر بالشر لكي يربى المسلمون على سنن الله في الأرض،ولكي يستقر في قلوبهم اليقين بأنهم ليسوا الاستثناء في الوجود،وأن السنن التي تحكم غيرهم بالنصر أو الهزيمة... بالبقاء أو الزوال... تحكمهم أيضا، وإن كانوا مسلمين... وإن كانوا بصحبة نبي.

إن الانتصار في بدر يجب أن لا يطغيهم أو ينسيهم سنة الله في الأرض، وأنهم بشر خاضعون لقانون مداولة الأيام بين الناس، فإن هم أخطؤوا وجب عليهم تحمل تبعات أخطائهم.

**﴿قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مومنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويـمحق الكافرين﴾**.[[48]](#footnote-48)

القانون عام حاكم، ولا مجال لاستثناء شخص أو جنس أو أمة، والقرآن الذي يقرر أن الأمة المسلمة هي خير أمة أخرجت للناس [[49]](#footnote-49) هو نفسه الذي يفضل بني إسرائيل على العالمين[[50]](#footnote-50)، فليست الخيرية في القرآن الكريم ولا التفضيل لشخص بعينه ولا لجنس ولا للون، ولا حتى لأتباع دين، بل لمن انسجمت تصرفاته مع سنن الحياة وقوانين الوجود، فإن تحقق ذلك تحققت الخيرية، وإن انعدم انعدمت ، حتى ولو كان الأمر متعلقا بمن بعث فيهم الرسل وجاءهم الأنبياء،**﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾**[[51]](#footnote-51) يلقون هذا الغي من دون نظر إلى كونهم شعب الله المختار أو أمته الخيرة... وبذلك يتحقق التداول بحسب الاقتراب أو الابتعاد عن سنة الله وقانونه.

وتستمر الآيات تترى مذكرة بسنة التداول تارة، مهددة بها تارة أخرى حتى تستقيم بذكرها نفوس، وتخضع بإطرادها نفوس **﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين، وكان الله على ذلك قديرا﴾،**[[52]](#footnote-52)**﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾**[[53]](#footnote-53)**﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**.[[54]](#footnote-54)...

ثم ما تلبث عروض القرآن أن تتجاوز الماضي والحاضر، إلى المستقبل القريب والبعيد منبهة إلى الحلقات التداولية وحدود كل حلقة، فالروم سينتصرون بعد انهزامهم، وفي ذلك بشارة خير للمسلمين، **﴿ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾**،[[55]](#footnote-55) بل إن بعثة الرسول نفسها إيذان بنهاية مرحلة وبداية أخرى **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾**[[56]](#footnote-56) فلا مجال لمعارضة القوانين ومعاكسة السنن **﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾.**[[57]](#footnote-57)

ومن يقف في وجه السنن تدسه حركة التاريخ وتغلبه قوانين الحياة ﴿**قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبيس المهاد﴾.**[[58]](#footnote-58)

نخلص من كل هذا الذي ذكرنا أن معيار الـقرب أو البعد من القانون "السنة"هو المحدد لمستقبل المجتمعات - بحسب القرآن - مؤمــنها وكافرها، تقيها وفاجرها.

1. - نجد أيضا في هذا الاتجاه ما يمكن وصفه ب "النظرة التقهقرية للتاريخ" ، وهي ترى أن أزهى العصور هو ما كان في الماضي، وأن الحياة سائرة باستمرار إلى الأسوأ، وأنه ينبغي توجيه الجهود في المحافظة على الماضي أكثر من توجيهها في ابتكار الجديد، بهذه الطريقة تم النظر إلى تعاليم كونفوشيوس فيلسوف الصين الكبير (توفي سنة 479 ق م) من لدن أكثر أتباعه مما عرضهم لغضب ملوك الصين لقرون عديدة ، فمنعوا تعاليمه ، وأحرقوا كتبه ، واعتبروها تسحب الناس إلى الوراء في نكسات مستمرة تلهيهم عن مواجهة تحديات واقعهم، وبهذا الأسلوب أيضا فسرتالكثير من المجتمعات الإسلامية أحاديث صحيحة وسقيمة، فتم النظر إلى التاريخ نظرة تقهقرية تراجعية ترى أنه كلما ابتعدنا عن العصر الذهبي للنبوة اقتربنا من زمن سيئ رديء يزداد سوؤه باستمرار، ولا يأتي يوم إلا والذي بعده أسوأ منه، ولا يبدو أن هذه النظرة كانت مجرد تعبير جماعي عن مشاعر الحنين لعهود قد مضت، بل كانت أيضا تنفيسا عن مشاعر غضب مستشر من ترد أوضاع لم يستطع الناس مواجهتها، وقد لقيت هذه النظرة بدورها معارضة نعرض لها أثناء حديثنا عن مسار البشرية من خلال النصوص الإسلامية. [↑](#footnote-ref-1)
2. - ([732هـ](http://ar.wikipedia.org/wiki/732_%D9%87%D9%80) / [808هـ](http://ar.wikipedia.org/wiki/808_%D9%87%D9%80) ) ([1332](http://ar.wikipedia.org/wiki/1332) م/ [1406م](http://ar.wikipedia.org/wiki/1406)) [مؤرخ](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A4%D8%B1%D8%AE) وقاض عربي أمازيغي، اعتبر من لدن المعجبين بمنهجه مؤسس علم الاجتماع، من أشهر مؤلفاته: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.."، و"المقدمة "، و"شفاء السائل لتهذيب المسائل". [↑](#footnote-ref-2)
3. - Emmanuel Kant فيلسوف ألماني: (1724-1804) عد خاتم فلاسفة عصر التنوير، من أكثر أعماله شهرة: "ما التنوير؟ " و"نقد العقل الخالص" و"نقد العقل العملي" و"مشروع للسلام الدائم "و" فكرة تاريخ كوني من وجهة نظر كوسموسياسية" (أي من زاوية نظر المواطنة العالمية). [↑](#footnote-ref-3)
4. Wilhelm Friedrich Hegel فيلسوف ألماني: (1770-1831) له: "أصول فلسفة الحق " و"فلسفة القانون"، و"حياة يسوع " و"محاضرات في فلسفة التاريخ " جمعه ونشره تلميذه إدوارد جانز وترجمه إلى العربية إمام عبد الفتاح إمام. [↑](#footnote-ref-4)
5. - Auguste comte فيلسوف فرنسي (1798-1857) يعتبر أول من استخدم مصطلح " علم الاجتماع "منأهم أعماله كتاب "الفلسفة الوضعية ". [↑](#footnote-ref-5)
6. - Karl Marx فيلسوف ألماني: (1818-1883) من كتبه: "رأس المال " و" حول المسألة اليهودية" و"البيان الشيوعي"مع فريديريك إنجلز. [↑](#footnote-ref-6)
7. - Francis Fukuyama رجل علم واقتصاد وفلسفة، أمريكي معاصر من أصل ياباني، ولد سنة 1952، من أهم أعماله"الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار " و" مستقبلنا بعد البشري: عواقب ثورة التقنية الحيوية " و" أمريكا على مفترق طرق"، لكن الكتاب الذي اشتهر به هو " نهاية التاريخ والإنسان الأخير " [↑](#footnote-ref-7)
8. -Emmanuel Kant, Projet de paix perpetuelle Textes philosophiques Traduction de Jules Barni revue par Alain Lagarde, Hartier, Paris 1988, p 31 [↑](#footnote-ref-8)
9. - جورج فيلهلم فريديريش هيغل، أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام – مكتبة مدبولي 1996 ج 1 ص: 590 [↑](#footnote-ref-9)
10. -انظر على سبيل المثال هاشم يحيى الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ دار الكتب العلمية ص 333. [↑](#footnote-ref-10)
11. - ظل هيغل وفيا لفكره (في الواقع) حينما غزا نابليون أرض ألمانيا رحب هيغل بالأمر بل وسمى نابليون ب (الروح المطلقة على جواد أشهب) انظر: Dictionnaire d'éthique et de la philosophie morale, sous la direction de Monique conto-sperber- pressesuniversitaire de France 1996 p:637 .Jaques d'hondt- HEGEL- Calmannlévy 1988 p:175 [↑](#footnote-ref-11)
12. - كارل ماركس، رأس المال، ترجمة محمد عيتاني منشورات مكتبة المعارف ص:7. [↑](#footnote-ref-12)
13. - فريديرك إنكلز، التفسير الاشتراكي للتاريخ، ترجمة راشد البراوي دار النهضة العربية 1968، ص: 64. [↑](#footnote-ref-13)
14. - Auguste Comte, Discours sur l'esprit positif Vrin, Paris, 1995, p.45 [↑](#footnote-ref-14)
15. - فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ ترجمة د. حسين الشيخ: دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص:16. [↑](#footnote-ref-15)
16. - المرجع السابق، ص: 86. [↑](#footnote-ref-16)
17. -عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، المقدمة - دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط 4: 1978، ص:170. [↑](#footnote-ref-17)
18. - المرجع السابق، ص: 86. [↑](#footnote-ref-18)
19. - المقدمة ص:168 [↑](#footnote-ref-19)
20. - المصدر نفسه، ص:168 [↑](#footnote-ref-20)
21. - المصدر ص:169 [↑](#footnote-ref-21)
22. - أزوالد شبنجلر (Oswald Spengler) (1880-1936). [↑](#footnote-ref-22)
23. - المقدمة ص: 172. [↑](#footnote-ref-23)
24. - أوزوالد شبنجلر، تدهور الحضارة الغربية ترجمة أحمد الشيباني منشورات دار مكتبة الحياة، ص:12. [↑](#footnote-ref-24)
25. - المصدر السابق، ص: 26. [↑](#footnote-ref-25)
26. - المصدر السابق، ص: 28. [↑](#footnote-ref-26)
27. -(Arnold Toynbee) مؤرخ إنجليزي (1889-1975) وأستاذ اللغة اللاتينية في جامعة أوكسفورد عين مديرا لدائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية صاحب كتاب " دراسة للتاريخ" . [↑](#footnote-ref-27)
28. - يشير توينبي أنه إذا كان الرخاء المفرط عدو الحضارات (ظلت القبائل البدائية في نيوزيلاندا مثلا على حالها لأنها تعيش في مناطق خالية من التحديات، مناطق استوائية وارفة بالخيرات) فإن شدة التحديات وقساوتها تشل أيضا النشاط الإنساني، فلقد ظلت قبائل الأسكيمو بدائية منذ آماد بعيدة لأن الطبيعة أعاقتها عن التقدم انظر:Arnold Toynbee A study of History A new Edition revised and abridget by the author and Jane Caplan published, oxford university press and thames and Hudson 1983, p:97. [↑](#footnote-ref-28)
29. - المصدر السابق، ص: 229. [↑](#footnote-ref-29)
30. - أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في كتاب الفتن باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعذه شر منه رقم الحديث 6657 وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير عن ابن مسعود وفيه : " أمس خير من اليوم، واليوم خير من غد ، وكذلك حتى تقوم الساعة " . [↑](#footnote-ref-30)
31. - معجم الطبراني الأوسط حديث 3425 والصغير رقم 127 وحلية الأولياء لأبي نعيم حديث 5333 والحديث غريب من حديث الأعمش لم يروه إلا هو. [↑](#footnote-ref-31)
32. سورة الرعد الآية 17. [↑](#footnote-ref-32)
33. -سورة الإسراء آية 81 [↑](#footnote-ref-33)
34. سورة التوبة ، آية 33 [↑](#footnote-ref-34)
35. سورة مريم ، آية 76 [↑](#footnote-ref-35)
36. أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه ابن حبان ، والحاكم على شرط الشيخين، ولم

    يتعقبه الذهبي. [↑](#footnote-ref-36)
37. سورة العصر [↑](#footnote-ref-37)
38. - عاش ابن خلدون (1332م-1406م) فترة تراجع الحضارة الإسلامية وتمزق شعوبها إلى عصبيات قبلية متطاحنة على السلطة خاصة بعد سقوط الأندلس وفقدان الموانئ التجارية على البحر الأبيض المتوسط، تزامن ذلك مع شيوع البذخ والترف في قصور السلاطين والحكام، وظهر أوغست كونت (1857-1798) في وقت انتشرت فيه المعارف العلمية وقويت الثقة بها وتراجعت القناعات المسيحية الكنسية مما جعله يبشر بانتصار العلم على الدين والميتافيزيقا، وظهر ماركس (1818-1883) في ظروف كانت فيها ألمانيا تعيش تمايزا طبقيا حادا من جراء تزايد نمو بورجوازيات مسيطرة على مقدرات البلاد وتزايد أعداد الفلاحين والعمال المعدمين، فاستهدف القضاء على الطبقية وما يدعمها من مقولات مسيحية"كنسية" ، ونشر شبنجلر (1880-1963 ) كتابه (سقوط الغرب) بفترة قصيرة بعد سقوط الرايخ الألماني، وألف توينبي كتابه (دراسة التاريخ) ما بين (1930-1950) في وقت أجبرت فيه بريطانيا على التخلي عن كثير من مستعمراتها، وهذا ألقى بظله على نظريات توينبي وشبنجلر مما جعلهما يقولان بفناء الحضارات، ونشر فوكوياما كتابه (نهاية التاريخ) وقت سقوط الاتحاد السوفياتي، وموت الشيوعية وتراجع العديد من الديكتاتوريات مما جعله يقرر أن الليبرالية الديمقراطية الأمريكية تشكل نهاية التاريخ وأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان.... [↑](#footnote-ref-38)
39. - سورة الزخرف آية: 73. [↑](#footnote-ref-39)
40. - سورة هود آية: 112. [↑](#footnote-ref-40)
41. - سورة يونس آية: 95. [↑](#footnote-ref-41)
42. -مجرد الانتماء إلى مجموعة بشرية ما لا يحدد بذاته مصير الانسان في القرآن الكريم حتى يكون هذا الانتماء دافعا لتوخي الحكمة، ولا يخفى أن الأحداث التاريخية في القرآن مجرد نماذج توضيحية عملية ترشد إلى أساليب توخي الحكمة في مختلف المواقف الفردية والاجتماعية. [↑](#footnote-ref-42)
43. - سورة المعارج 44-48. [↑](#footnote-ref-43)
44. - سورة الأعراف الآيتان: 184-185. [↑](#footnote-ref-44)
45. - في كتب الحديث والسير عن ابن مسعود أنه "بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم عند البيت يصلي وأبو جهل وأصحابه جلوس ، إذ قال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وضعه بين كتفيه فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض... فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم فقال: "اللهم عليك بقريش" ثلاثا، فلما سمعوا ذلك، ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وفي رواية أحمد زيادة" وعمارة بن الوليد" يقول ابن مسعود: فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ،لقد رأيت الذي سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر، أخرجه البخاري (1/278-280-471) ومسلم (5/180) والنسائي (1/51) وأحمد (رقم 3732 و3962)، وعلى العموم تذكر كتب السيرة أن عدد قتلى المشركين في بدر تراوح بين الخمسين والسبعين أغلبهم من كبار فكار قريش وأشدهم بأسا على المسلمين. [↑](#footnote-ref-45)
46. - منهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبو حذيفة (وهو اليمان) أصابه المسلمون في المعركة وهم لا يدرون، وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة، وعبد الله بن جبير بن النعمان أمير الرماة، وأوس بن ثابت أخو حسان بن ثابت، ومالك بن سنان ، وهو أبو أبي سعيد الخذري، وعمرو بن الجموح، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وغيرهم... انظر سيرة ابن هشام دار القلم، بيروت، لبنان.ج 3، ص 129 إلى 133

    /129-133. [↑](#footnote-ref-46)
47. - سورة آل عمران آية:165. [↑](#footnote-ref-47)
48. - سورة آل عمران 137-141. [↑](#footnote-ref-48)
49. - سورة آل عمران:110. [↑](#footnote-ref-49)
50. - سورة البقرة:121. [↑](#footnote-ref-50)
51. - سورة مريم:59. [↑](#footnote-ref-51)
52. - سورة النساء 133. [↑](#footnote-ref-52)
53. - سورة إبراهيم: 19-20. [↑](#footnote-ref-53)
54. - سورة محمد: 39. [↑](#footnote-ref-54)
55. - سورة الروم: 1-3. [↑](#footnote-ref-55)
56. - سورة الفتح: 28. [↑](#footnote-ref-56)
57. - سورة الفتح: 22. [↑](#footnote-ref-57)
58. - سورة آل عمران آية: 12. [↑](#footnote-ref-58)